الطيف والخيال عند الشعراء العرب

الدكتور أيهم عباس القيسي

من السمات التي انطبع بها شعر العذريين هي سمة الإخلاص لمن أحبوا ، والتضحية في سبيل من عشقوا ، حتى بات المحبون الذين نعرفهم بأسمائهم قد تركهم الهوى أجسادا يلا أرواح ، وأصبحوا من علة الهوى على قسمين ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، فهم ما بين قتيل وشهيد ، وشقي وسعيد على اختلاف طبقاتهم ، و أشكالهم ، و تباين مراتبهم وأحوالهم ، وغير ذلك مما تصبح به أوراقه يانعة .

ومن المفيد تقديمه إن الحب العذري صورة مصفاة مهذبة من صور الحب ، يسموا على لذة الحس ، ويتعالى على شهوة الجسد ، وهو ظاهرة اجتماعية أدبية عرفها الأدب العربي بعد ظهور الإسلام ، واشتهرت به قبيلة عربية عرفت بالدماثة والرقة وكثرة الجمال وشيوع العشق بين أفرادها ، تلك هي قبيلة عذرة التي نُسب إليها هذا الحب ، وبها عُرف .

وهذه المحاولة تتناول تحليل شعر أشهر من عرفوا بهذا اللون من الحب ، وهؤلاء العذريون هم أعلام في شعرهم مثلما هم أعلام في عشقهم ن فقد صوروا لنا عالم الغرام ، الذي تربعوا على عرشه ، وشيدوا صروح الهوى ، ولاذوا بالخيال ليدروا غزوات الهجر ، فاستحال الطيف والخيال متنفسا يسربون من خلاله هموم النفس ، وعذاباتها ، فوجدوا في خيال المحبوبة صورة تعوضهم عن وجودها الحقيقي ، بعد ان حالت بينهم المسافات ، وتباعدت بهم السبل ، فكان طيفهم حظ قلوبهم في الكرى ، مثلما كانت رؤية من أحبوا حظ عيونهم في اليقظة .

إن موضوع الطيف والخيال يمثل لمحة من لمحات الـــهوى فـــي حيـــاة العذريين الذي استحال حبا ثم سما فأضحى عشقاً ، وهذا حال جميع العذريـــن ، حيث تجدهم عاشقين هائمين في طيف من أحبوا ، بعد أن أبلاهم حبـــهم شـــوقا ، وأملا في الوصال .

والحب العذري ظاهرة اجتماعية جديدة بعض الجدة في حيـــاة العـــرب ، تقوم أواصره على بين فتى وفتاة يألف أحدهما الآخر في زمن مبكر مـــن عـــهد الطفولة ، وتبدأ هذه الإلفة في البيت أو المرعى ، وغير ذلك . ثم تنمو هذه الإلفـــة كلما تقدمت بها السن ، حتى اذا بلغ الحلم واستيقظ في نفسيهما الميل بدرجة أكـــبر وأحسا بحرارة العاطفة تتأجج ، زاد ذلك في إلفة بعضهما ، وشعر كل منهما باللذة التي يصيبها من الحديث إلى أليفه والقرب منه .

وهكذا يصبح للنظرة معنى لم يكن لها من قبل ، وللبسمة مدلول ما كـانت تدل عليه ، وكلما التقى الأليفان ، وأخذا بأطراف الحديث وتبادل النظر والابتســـام أحسا بارتياح وشعرا بسرور تشتد به الإلفة وتقوى به العلاقة حتى اذا افترقا تذكرا لذة القرب ، وتخيلا متعة الحديث والنظر فأحس كل منهما بالشوق إلى أليفه ، فـإذا اجتمعا أقبل كل على صاحبه إقبال الملهوف يريد أن ينعم بقربه ويأنس بالنظر إليه ويستمتع بحديثه .

هكذا يولد الحب ، وهكذا تكون الألفة والاستلطاف أشبه ما يكون بالصداقـــة ثم تجتمع إليه الحاجة النفسية فتزيد أواصره قوة ، وكلما تقدم الأليفان في مـــدارج النضج النفسي قوى الإحساس بحاجة كل منهما إلى أليفه وشعوره بالافتقار إليـــه ، فهو لا يطيق بعده ولا يرتاح إلا بقربه وتنضج صلتهما بمرور الزمن ، وفي نفـس كل منهما صورة صاحبه لا ينفك يتخيلها ، ويضفي عليها ما يشاء مـــن اســـباب الكمال ويتصور منها المثل الذي يطمح إليه في حياته التي يسعى إليها .

والغزل العذري هو الشعر الذي يصف الحب العذري [١] . وفيه يعبر الشاعر عن عاطفة ثابته وقوية ، يهيم فيها المحب بحبيبته ، ويرجو الحظوة بوصلها ودليل ذلك ما وجدناه في أشعار الغزلين التي صورت لنا بصدق ما عانوه من عظيم الآلام . فما أهون المتع الحسية عند هذا المحب ، وما أعظم شأن عاطفته في ذاتها ، وكانت الضريبة التي دفعها هي عدم الظفر بحبيبته على الرغم من تعلقه بها ، وهنا لابد أن نتساءل هل كان هذا الحرمان بإرادة الشاعر أم هو مفروض عليه بحكم تقاليد المجتمع وعاداته ، وقد يكون بإرادته وزهده بالمحرمات وتقواه من الله جل ثناؤه ، حيث تعذر عليه الوصال واذا بنا نراه يستمرئ العذاب في سبيل هذا الحب .

وتجمع العذريين صفات مشتركة في حبهم وشعرهم منها العفة والحرمان ، اللذان هما عمود الحب العذري وقد نشأ عنهما نوع من اليأس ألهب العاطفة عند هؤلاء المحبين فنراهم يصفون بخل المحب وتعذر مناله في لوعةٍ ويأس بالغين ، وقد عبر عن ذلك كُثير قائلاً .

فقلت لها ياعز كلَّ مصيبةٍ اذا وُطّنت يوماً لها المنفس ذَلتِ
كأني أنادي صخرةً حين أعرضت من الصم لو تمشي به العصم زلتِ
صفوحاً فما تلقاك الا بخيلة فمن قلَّ منها ذلك الوصل ملتِ [٢]

وأصل الطيف ، الجنون والمس من الشيطان ، يقول تعالى (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مُبصرون)[٣] ، ويقال طاف الخيال ، يطيف طيفا ومطافا . وطائف الخيال والطيف الخيال نفسه وخلاصة القول . فان الطيف هو الخيال الطائف في المنام ، وهذا ما اجتمعت عليه المعجمات

(١) الحب العذري نشأته وتطوره ، ص ٥٢ .
(٢) ديوان كثير ، ص ٤٣ .
(٣) الأعراف : ٢٠١ .

اللغوية [١] . وقد يستعمل في الغضب ، ومن ذلك قول أمية بن أبي عائذ الهذلي

ألا يالِقوم لطيف الخيالِ يورِّق من نازحٍ ذي دلالِ [٢]

ويبدو من خلال هذا الاستعراض لدلالة كلمة (طيف) أنها تعني الخيال في الوقت نفسه ، وبهذا الاستعمال استخدمها الشعراء ، فلم يفرقوا بين الطيف والخيال ، وقد استخدمها البحتري بهذه الدلالة فقال :

عجباً لطيف خيالك المتباعدِ ولوصلك المتقارب المتباعد [٣]

وقد تفنن الشعراء في وصف الخيال وزخرت دواوينهم بالرائع منه ، وقد تعجب الشعراء كثيراً من زيارة الطيف على بعد الدار وشحط المزار ، ووعورة الطرق ، واهتدائه إلى المضاجع من غير هادٍ يرشده ، وكيف قطع بعيد المسافة بلا حافزٍ ولا خف ، في اقرب مدة وأسرع زمان ، لان الشعراء فرضوا أن زيارة الطيف حقيقة ، وأنها في النوم كاليقظة ، إذن فلابد من العجب مما تعجبوا منه ، من طي البعيد بغير ركاب ، وجوب البلاد بلا صحاب [٤] .

ومما يمدح به (انه يعلل المشتاق المغرم ، ويكون الاستمتاع به والانتفاع به ، أنه زيارة من غير وعد يخشى منه ، واللذة التي لم تحتسب وترتقب ، ويتضاعف بها الالتذاذ والاستمتاع ، وهو وصل من قاطع ، وزيارة من هاجر ، وعطاء من مانع ، وبذل من حنين ، وجود من بخيل) [٥] .

وقد يُذم الطيف (بأنه باطلٍ وغرور ، ومحال وزور ، ولا انتفاع بما لا أصل له ، وإنما هو كالسراب اللامع ، وكل تخيل فاسد ، وربما يذم بأنه سويع

(١) اللسان ، تاج العروس : مادة طيف .
(٢) ديوان الهذلين ، ص ١٧٢ .
(٣) ديوان البحتري ، ص ٥٠٧ .
(٤) طيف الخيال للمرتضى ، ٦ .
(٥) طيف الخيال ، ٨ .

الزوال ، وشيك الانتقال ، وبأنه يهيج الشوق الساكن ، ويضرم الوجد الخامد ، ويذكر بغرام كان صاحبه عنه لاهياً ساهياً [١] .

وهذه المعاني في مدح الطيف وذمه قد تتشعب وتمتزج فتتولد بينهما من المعاني ما لا ينحصر ، وهذا يتوقف على قوة طباع الشاعر وصحة قريحته مدى إجادته في هذا النوع من الوصف .

والخيال كما صنفه المتأخرون على أنواع ، منه الخيال المتألق أو المبدع ، أي أن يخلق الأديب من خياله أشخاصاً من رجالٍ ونساء ، ويجعل لكل شخصية دوراً خاصاً عبر أحداث خاصة وظروف خاصة ، وكذلك هنالك الخيال المؤلف ، وفيه يؤلف الشاعر بين مناظر مختلفة ، حيث يشعر بشيء ثم يتبين أثره في نفسه ، وهناك الخيال الموحي ، وفي هذا النوع نرى الشاعر بدلا من أن يقرن صورة بأُخرى ، يضيف إلى الصورة التي يراها صفات ومعاني روحية تُؤثر في النفس ، أي أن يتعمق في إبراز تلك الصورة التي ينقلها حتى يجعلها تفيض بالحياة [٢] ويعبر جميل بثينة عن شدة تعلقه بمحبوبته ، فيقول :

فما غاب عن عيني خيالُك لحظةً ولا زال عنها ، والخيالُ يَزول [٣]

فخيالها ملازم له وهو يكتف بإخبارها بذلك بل راح يؤكد لها بان هذا التعلق كامن في خاطره ويتجاوز للخيال ، فالخيال كما وصفه جميل زائل أما خيال من احب فهو أوسع من هذا بكثير ، أما الخيال عند المجنون يبلغ مبلغاً ملَك عليه جوارحه ، بما فيها الاستمتاع والفهم لاي حديث الا الحديث الذي تكون ليلى موضوعه ومما يقول المجنون في طيف الحبيبة وخيالها

فإن تمنعُوا ليلى وحسن حديثها فلن تمنعوا عني البكاء والقوافيا

فهلا منعتم إذ منعتم حديثها خيالاً يوافني على النأي هاديا [٤]

(١) المصدر نفسه ، ٧ .

(٢) النقد الأدبي ، أحمد أمين ج ، ١ ، ص ٩٢ .

(٣) ديوان جميل بثينة ، ص ، ١٦٢ .

(٤) ديوان مجنون ليلى ، ص ، ٣٠٠ .

ويبدو الفارق بين قيس وجميل في أبياتهما السابقة جليا ، فالأول سما في خياله أي (خيال محبوبته) وتحدى جبابرة الواقع به ، والثاني عبر عنه شعوره تجاه طيف حبيبته وأبدى عجبه ربما لعدم توقعه ذلك .

فالاختلاف بينهما في طريقه التناول ، وهذا طبيعي لان لكل منهما طريقته في التعبير ، ويصور مجنون ليلى ما حل به وما صار إليه حاله ، فيقول

وأخرج من بين البيوت لعلّني أحدثُ عنك النفس في الليل خالياً
أراني إذا صلّيتُ يممتُ نحوها بوجهي وإن كان المُصلي ورائيا
أصلي فما ادري إذا ما ذكرتها أثنين صليت الضحى ام ثمانيا
وما بي إشراك ولكنَّ حُبها كعود الشجى أعيا الطبيبَ المداويا (١)

فقيس في هذه البيات يعاني من شدة الولع والهيام بليلى ، حتى صار لا يستقر في بينت ولا يحويه مجلس ، لأنه يؤثر الخلوة مع نفسه ، لأنها خلوة مع ليلى كما يبدو من الشطر الثاني من البيت الأول (لكنها خلوة في الخيال) ، فعجباً لقيس مما وقع له ، حتى صار يبجل ليلاه ويحيطها بهالة من التقديس بحيث يستقبل في صلاته بيت (ليلاه) مكان القبلة ، وهذا لا يحصل إلا في حالة عدم الشعور التي أصابت قيساً ، فصار يصلي بدل الاثنين ثمانية ، لان طيف ليلى ملازم له ، ولا يعتقه حتى في صلاته ، وقد صور هذا الطيف كأنه عظم اعترض في الحلق ، قد أعجز كل طبيب عن مداواته ، وهذه الصورة تترجم حال قيس وهو هائم لا يفتأ ان يصحو من خيال ليلى الذي لازمه .

فما سرتُ من ميل ولا سرتُ ليلةً من الدهر الا اعتادني منك طائف
ولا مر يومٌ مذ ترامت بكِ النّوى ولا ليلة الا هَوى منك رَوافُ
أُهمُّ يسلوا عنك ثم تَرّدني إليك وتُثنيني عليك العواطفُ
فلا تحسبن النأي أسلى مودتي ولا أن عيني ردّها عنك عاطف (٢)

(١) ديوان مجنون عود الشجى : كل ما اعترض في الحلق من عظم ليلى ، ص ١٩٤ .
(٢) ديوان جميل ، ص ١٢٦ .

فيظهر من هذا الخطاب الذي وجهه جميل إلى بثينة أنه جعل من طيف بثينة وخيالها رفيقاً يسير معه في كل خطوة ، ويتبعه إلى كل مكان وفي كل زمان ، وهذا ديدنه مها كانت المسافة شاسعة بينه وبين بثينة .

وتبدو الحيرة مرتسمة على وجه جميل ، وهو يتأمل زيارة الطيف له فيقول :

ألم خيال من بثينة طارقُ على النأي مُشتاق إليَّ وشائقُ
سرت من تلاع الحجر حتى تخلصت إلي ودوني الأشعرون وغافقُ
كأن فتيُت المسك خالطَ نثرها تُغل به أردافها والمرافق
تقوم إذا قامت به عن فراشها ويغدو به من حضنها من تعانقُ (١)
ألا إنها ليست تجود لذي الهوى بل البخل منها شيمة وخلائق (٢)

فهو في حيرة من أمره ، على الرغم من بُعد الدار وشحط المزار ، وهو ما يظهر في البيت الثاني ، حيث ذكر المكان الذي هو فيه ، والصعوبات التي تحول بينه وبين حبيبته ، ولكن طيفها قد تمكن منه حتى وصف لنا عطرها الذي عينه في حالة قيامها من فراشها (وكل هذا كان مجلساً من مجالس الأحلام) ، ويصطدم جميل بالواقع في آخر أبياته ، حيث ينعت بثينة بالبخل ويقرر انه من شيمتها ، أما جودها فهو في خياله فحسب وتفيض ابيات المجنون عاطفة ، وهو يستخدم الخيال ، فيقول :

زها جسم ليلى في الثياب تنعماً فيا ليتني لو كنت بعض برودها
أفي النوم ياليلى رأيتك أم أنا رأيتك يقظاناً فعذري شهودها
ضممتك حتى قلت ناري قد انطفت فلم تطف نيراني وشبَّ وقودها (٣)

فعاطفة قيس المشبوبة الملتهبة تتربع على عرش الخيال ، فهذا العاشق يتمنى لو انه بعض برود ليلى حتى يكون ملازماً لها ، ملازمة البرود التي تحيط بها ،

---

(١) ديوان جميل ، ص ، ١٤٢ .
(٢) ديوان جميل ، ص ١٤٣ .
(٣) ديوان مجنون ليلى ، ص ، ٢٩٠ .

وربما وقفنا موقف الإعجاب من هذا البيت المشحون بالعاطفة ، لكن قيساً في البيت الثاني عندما شاهد ليلى وهي تزهو بثيابها اختلط عليه الأمر ، فهو لا يدري أهو في علم من هذا المشهد أم في حلم ، فيتأكد من ذلك ويأتي لنا بالشهود حتى يضمن تصديقنا لما رأى وشاهده هو ، وضمه لها ، وهل بعد الاحتضان من قرب ؟ ويبدو ضمّه ليلاه قد زاده ولعاً وهياماً ، ويصوّر المجنون تعمده النوم وليس به نعسة ، املا في أن يلاقي طيف حبيبته ، فيقول :

وإني لاستغشي وما بي نعسة لعل خيالاً منكِ يلقى خياليا [١]

ويهوى قيس بن ذريح النوم في غير حينه ليتمكن من لقاء محبوبته في الخيال ، حيث يقول :

وإني لأهوى النومَ في غير حينه لعل لقاءً في المنام يكونُ

تحدثني الأحلام أنـي أراكم فياليت أحلام المنام يقينُ [٢]

ويبدو لنا ان هؤلاء الشعراء قد تعمدوا النوم ، وتمنوا أن يناموا لاحباً في النوم بعد عناء ، إنما لجأوا إلى النوم أملاً منهم في لقاء ، على الرغم من يقينهم أنه لقاء في حلم ، فقد بلغت بهم تباريح الهوى مبلغاً جعلهم يرضون بلقاءات الأحلام . ويكلم المجنون وهو في هيامه ليلى كأنها ماثلة أمامه ، ويرسم لها صورة من وحي خياله ، فيقول :

أكلم صورة في الترب منها كأن الترب مُستمع خطابي

كأني عندها أشكو اليها شقائي والحديثُ إلى التراب

فلا شخص يرد جواب قولي ولا العباب يرجع لي جوابي [٣]

فهو في حالة هذيان يتخيل صورتها في التراب ، وكأن التراب ، مستمع خطابه ويسترسل في شرح شكواه وشقائه ، ولكنه يستفيق في النهاية فلا يرد عليه،

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٩٦ .

(٢) ديوان قيس ، ص ٩٢ .

(٣) ديوان مجنون ليلى ، ص ٧٤ .

والعتاب ترجع الجواب ، ولا يقل قيس سلبنى عن أخيه المجنون ولعـــاً وعاطفـــة صادقة تفيض عفة وتنطق بالمعاناة ، وهو يعبر عن أحزانه وهمومه ، فيقول

إن التي طرقتـــك بيـــن ركائب تمشي بمزهرها وأنت حرامُ
باتـــت تعللنـــا وتحســـب أننا في ذاك ايقاظ ونحـــن نيـــام
حتى إذا انصدع الصباح لناظر فإذا وذلك بينـــا أحـــــلام [١]

ويبدو ان قيساً هذا كالذائب في برد الطيف ، وإذا به قابض علـــى حجـــر الحقيقة ، فقد طرقته لبنى وعللته كأنه في الواقع ، ثم ينبلـــج الصبـــح وإذا بذلـــك أضغاث أحلام ، وقيس في هذه الأبيات يتفنن في وصف طيفه كما في قوله (فـــي فاك ايقاظ ونحن نيام) فهذا التفات منه بشأن معنى الطيف الذي أشار إليه بشـــكل غير مباشر. ولا يهجع قيس بن ذريح إن بانت لبنى وكيف ينـــام المـــرء ، وهـــو يستشعر الجوى ، حيث يقول :

فمـــا أنـــا ان بانت لبنى بهاجع اذا ما اطمأنت بالرجال المضاجع
وكيف ينام المرء يستشعر الجوى تعـــاوده منهـــا بكأس روادع [٢]

إن محاولة الوقوف عند ظاهرة الطيف والخيال في شعر العذريين تكشف لنـــا جانباً من صدق العاطفة التي تميز بها شعرهم ، وتقدم لنا صـــورة صادقـــة عـــن حرمانهم وصبابتهم ، وهي بلا شك تعبر عن قدرة فنية عاليـــة تفيـــض بـــالصور الناطقة ، وتطفح بالصدق العفوي الذي امتاز به شعرهم ، وانطبعت بها حياتهم .

(١) ديوان قيس ، ص ٨٦ .
(٢) ديوان قيس ، ص ٧٦ .